المدنية العربية في صقلية

العلوم الدنيوية

اسلفنا القول في عناية اهل صقلية بالعلوم الدينية وأثرهم فيها وقد كانت لهم بغيرها من العلوم عناية تضارعها او تزيد

﴿ الرياضيات ﴾ كانت للصقليين مشاركة في الرياضيات وكثير من علمائهم كان مهندساً ومنجماً فابو عبدالله محمد بن عيسى الفقيه كان كاتباً وشاعراً ومهندساً وابو حفص عمر ابن الحسن اللغوي الشاعر كان مهندساً ومنجماً . وكان يرحل علماؤهم الى خارج الجزيرة ليعيشوا في حشية ملك غنيّ قوي فالشيخ ابو محمد عبد الكريم الصقلي الفلكي عمل في الرصد الذي انشأهُ الحاكم بمصر وابو عبدالله الصقلي الطبيب الذي يجيد اللغة الافرنجية كان بالاندلس ايام الخليفة الناصر وسترى اثرهُ في كتاب « ديسقوريدس » عند الكلام على الطب

﴿ الطب ﴾ نبغ من الصقليين اطباء نطاسيون تركوا كتباً قيّمة في الطب منهم ابو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل الصقلي وكان طبيباً خبيراً بالمداواة جيد التصرف في صناعته طبّ هشام المؤيد بالله الاندلسي . وقد فسر اسماء الادوية المفردة من كتب « ديسقوريدس » وقال « ان هذا الكتاب حين ترجمهُ اصطفن بن بسيل ايام المتوكل لم يتم بيان الاسماء اليونانية بالعربية بل ذكر منها ما عرف وترك ما لم يعرف على اسمهِ اليوناني اتكالاً منهُ على ان يبعث الله بعدهُ من يعرف ذلك ويفسرهُ باللسان العربي . ثم اهدى ملك القسطنطينية ذلك الكتاب باللسان اليوناني الى الخليفة الناصر فطلب اليهِ ان يبعث اليهِ خبيراً بذلك اللسان فبعث اليهِ براهب يعرف اليونانية اسمهُ نقولا . وتألفت لجنة من اطباء قرطبة الباحثين كمحمد بن سعيد الطبيب وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم وحسداي الاسرائيلي ومحمد المعروف بالشجار وطبيب كان يعرف بالبسباس وابو عثمان الجزار وابو عبدالله الصقلي الذي كان يعرف اليونانية القديمة (المتقدم ذكرهُ) ومعهم الراهب نقولا وصححهم ابن جلجل الصقلي ايام الحكم فصححوا اسماء العقاقير تصحيح الوقوف على اشخاصها وتصحيح النطق باسمائها بلا تصحيف وعلى ذلك التصحيح كان تفسير ابن جلجل الصقلي للادوية المفردة

ومن ألّف في الطب من الصقليين ابو سعيد بن ابراهيم المغربي الصقلي مؤلف كتاب (المنجح في التداوي من سوف الامراض والشكاوي) ولهُ في اوله كلمة لا تزال جديدة يحب ان يسمعها الاطباؤنا قال « ثم انهُ لما كانت طبائع الامراض والاشخاص والاعضاء مختلفة لم تتم المداواة لكل مريض ولكل مرض ولكل عضو بدواء واحد معلوم اذ كانت في كل دواء من الادوية قوى كثيرة مختلفة لا توافق المرض الواحد من جميع جهاتهِ فيحتاج الطبيب لذلك الى ادوية كثيرة مختلفة المزاج والقوة نافعة من مرض واحد ليختار منها الاليق لقرنهِ والاصلح لمقصدهِ بحسب ما يراهُ من الاسباب الحاضرة الخ ما قال. ومن المؤلفين في الطب احمد بن عبد السلام الشريف الصقلي صاحب كتاب « الاطباء » في الامراض من الفرق الى القدم ذكر فيهِ اجزاء البدن جزءاً جزءاً وما يعتري كل جزء من المرض ودواءهُ

﴿ الجغرافيا والرحلات ﴾ كان لهم من الجد في طلب العلم ما قدمنا وصفهُ فرحلوا الى تونس وسائر المغرب والاندلس ومصر والشام . وقدمنا خبر رحلة الشيخ المعروف بالتركي النحوي العسقلي الى بغداد وخراسان والهند . ومن ارتحل منهم ودخل البلاد وكتب عنها العابد ابو بكر عتيق ابن علي بن داود المعروف بالسمنطاري أحد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين كسافر الى الحجاز وساح في البلدان فدخل اليمن والشام وارض فارس وخراسان ولقي من بها من العباد واصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع ولهُ في دخول البلدان ومقابلة العلماء كتاب بناهُ على حروف المعجم ولهُ في اخبار الصالحين كتاب كبير ولهُ في الفقه والحديث تآليف حسان وتوفي سنة ٤٦٤ هـ . فهكذا الزهد والتعبد لا ما نرى اليوم من ضروب الجهل والحماقة

ومن صقلية وعلى يد مسلميها أيضاً وصلنا أنفس أثر جغرافي للعرب وان كان ذلك بعد سقوط دولتهم بها وذلك كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف ابي عبد الله محمد ابن محمد بن عبد الله بن ادريس المولود سنة ٤٩٣ هـ . وقد استقر اخيراً في بلاط ريجار الثاني (روجر) النورماندي الذي سلك طريق ملوك المسلمين من اتخاذ الجنائب والحجاب والسلاحية وغير ذلك وخالف عادة الافرنج واتخذ ديواناً للمظالم ترفع اليهِ شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولدهِ. واكرم المسلمين وقربهم وكان ريجار هذا ذا ولع شديد بعلم الجغرافيا ولم تشغلهِ

الكتب التي كانت اذ ذاك عليهُ فاحضر العلماء المتجورين فسألهم عما اتفق فيهِ قولهم وصحَّ في جمعهِ نقلهم أثبتهُ وابقاه وما اختلفوا فيهِ القاهُ وأزجاهُ وكان فيمن دعا من العلماء عالمنا العربي الشريف الادريسي ثم اراد ان يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليهِ القوم فاحضر لوح الترسيم « خريطة » واقبل يختبرها بمقاييس من حديد مع نظرهِ في الكتب وترجيحهِ بين أقوال مؤلفيها حتى وقف على الحقيقة فيها فامر ان يفرغ لهُ من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن ٤٠٠ رطل بالروي في كل رطل منها ١١٢ درهماً فلما كملت أمر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع انهارها وعامرها وغامرها وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة ممثلاً في لوح الترسيم ولا يغادر منهُ شيئاً الاَّ اتوا بهِ على هيئتهِ وشكلهِ كما رسم لهُ ، وامر ان يؤلف كتاب مطابق لها في اشكالها وصورها غير انهُ يزيد عليها بوصف اطوار البلاد وخلقها وبقاعها واجناس نباتها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق فيها وخلقهم ومذهبهم وزيهم الخ وامر ان يسمى هذا الكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وتم لهُ ذلك على يد الشريف ويقولون انهُ صنع لريجار أيضاً عدا الكرة الارضية كرة اخرى سماوية. وقد نقل الاستاذ احمد زكي باشا نسخة كاملة من هذا الكتاب بالفوتوغراف بخرائطها ورسومها وهي في جملة الكتب النادرة التي قررت وزارة المعارف طبعها احياء لآداب اللغة ولم يتم ذلك حتى الآن. وقد ظل هذا الكتاب بخرائطهِ معتمد الافرنج في علم الجغرافيا اجيالاً طوالاً لاسيما عن البلاد الشرقية . فقد رسموا خرائطهُ وترجموها الى ألسنتهم وتناقلوها

﴿ التاريخ ﴾ اما التاريخ فقد نال من عنايتهم نصيباً فتركوا كتباً في تاريخ جزيرتهم ككتاب تاريخ صقلية لابي القاسم علي بن جعفر المشهور بابن القطاع . وكتابهِ في تراجم شعرائها وهو المعروف بالدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة . وفي تاريخ غير صقلية ككتاب القاضي ابن حمديس الشاعر السابق ذكرهُ في تاريخ الجزيرة الخضراء بالاندلس

ومن نجباء صقلية المفلوكين ابو عبدالله محمد بن ابي محمد بن محمد بن ظفر وكان

مولدهُ بصقلية ونشأتهُ بمكة وتنقل في البلاد اذ رحل صغيراً في طلب العلم فدخل بلاد المغرب ولقي ابا بكر الطرطوشي بالاندلس ولقي علماء افريقية ولقي بالاندلس ابا بكر بن العربي وابا مروان الباجي وابا الوليد الدباغ وابن مسره وعاد الى صقلية ثم سافر منها الى الشام وسكن آخر الوقت حماة وبها مات سنة ٥٦٧ هـ . وقيل انهُ زوج بنتهُ في حماة بغير كفء من الحاجة والضرورة فرحل لازوج بها عن حماة وباعها في بعض البلاد . وكانت لهُ وهو بين أنياب البؤس جولات في ميدان العلم فصنف سبعاً وعشرين كتاباً منها كتابهُ المعروف « بانباه نجباء الابناء » وهو كتاب تاريخي ادبي يشتمل على أحاديث عن نشأة كثير من مشهوري الرجال ونوادر طفولتهم وتكميل بعض النقص في كتب الوفيات بحديثهِ عن هذا العهد من حياة العظماء وقد طبع في مصر . وكتاب « سلوان المطاع في عدوان الاتباع » شرح فيهِ قوانين الحكمة ونوادر من أخبار السلاطين على لسان الطيور والوحوش وقد ترجم الى الفارسية والتركية وطبع في مصر وتونس وبيروت وفلورنسا ولندن ولهُ عدا ذلك كتب كثيرة وحسبنا ذلك من حديث العلم والنظر

الحياة العاملة

ولنرسم للقارىء صورة من الحياة العاملة من زراعة وتجارة وصناعة وما الى ذلك. وقد سبق القول بان فتوح الاسلام بالمغرب ظهر تأثيرها في صقلية بنزول من فرَّ من اهل المغرب اليها فما زالها المسلمون ازدادت عمارتها واتسعت رقاعتها وازدحمت مدنها بالسكان فكان بالخالصة « وهي ربض بلرم » فوق المائة والخمسين دكاناً لبيع اللحم وكان بها مسجد جامع يسع سبعة آلاف رجل ونيفاً وبالمدينة من المساجد نيف وثلثماية مسجد قال ابن حوقل « ولقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار ابي محمد القفصي الوثايقي فرأيت من مسجدهِ في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري ومنها شيء تجاه شيء وقد سألت عن ذلك فقيل لي أن القوم بشدة التفاخر رؤوسهم كان يحسب كل واحد منهم أن يكون لهُ مسجد مقصور عليهِ لا يجب ان يشركهُ فيهِ غير اهلهِ وحاشيتهِ وربما كان اخوان منهم متلاصقة دارهما متعاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه » ونحن لا نذكر هذا لقبح أو حسن من حيث ائتلاف القلوب لكنا نعتبر بهِ الحالة التي تسمح باقامة المساجد للعائلات بهذه السعة كانت مدنهم وكانت على ما يرجى من النظام مفروشة اسواقها

بالحجر وبها اسواق للزياتين والصيارفة والصيادلة والخزازين والصياقلة والنخاسين واسواق للقمح وبها الكثير من الحمامات والفنادق

﴿ الزراعة ﴾ كانت الجزيرة خصبة بها من المواشي والرقيق والسلاح للزرع ما تفضل به سائر مدن الاسلام المتاخمة للبحر ولقيت قوماً اولي عزائم فجادت ودرّت وكثرت بساتينها وكرومها واستنبت بها الكتان والقسطل والشاه بلوط واللوز والتين والخرنوب والتفاح والاجاص . وبها القصب الفارسي وفي خلال اراضيها بقاع قد غلب عليها البربير (البردي) الذي قال ابن حوقل عنهُ ولم أعلم لهُ عديم من هذا البربير نظير بوجه الارض الا ما بصقلية واكثرهُ يفتل حبالاً للمراكب « تخاط بها وتقاد » واقلهُ يعمل منهُ للسلطان طوامير . وكانت تزرع بها الحناء وتصدر الى الخارج وكان يستنبتون بالجبال غابات يستمدون منها الخشب لصنع المراكب وازدادت عنايتهم فلم يهملوا سهلاً ولا جبلاً يصلح للعمارة فذكروا ان بها جبلاً يسمى جبل القلال كان خرباً وفيهِ مياه وارض فوقع اليهِ قوم من المسلمين فعمروهُ ولن يقصروا الى الجبل وفي السهل متسع

﴿ الصناعة ﴾ واما الصناعة فقد تقدمت مع ذلك فكان ينسج القطن في صقلية ويستخرج منها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق والحديد والشب والكحل . وكان الذهب بها كثيراً . اما الحديد فكان بعضهُ يعرف في المراكب والبعض يصدر الى الخارج لاسيما من مناجم مسيني . وكان بها دار صناعة لبناء السفن في (الخالصة) ربض بلرم وقد عرف اهلها استعمال تيار الماء في ادارة الآلات وكثير في الكتب العربية ذكر الارحية الطاحنة التي تديرها المياه اثناء وصف أنهار صقلية . وكانوا يصنعون الورق من البردي كما سبق . واستخراج هذه المعادن والانتفاع بها يحتاج الى ما تعرف من العلوم والخبرة

﴿ التجارة ﴾ واما التجارة فانها تتبع النفوذ السياسي وحسن المواصلة والمسلمون لهذا العهد قد تغلبوا على الاكثر من لجة بحر الروم وسارت اساطيلهم فيهِ جائية ذاهبة والعساكر الاسلامية تجوز البحر فيها من صقلية الى البر الكبير « شاطيء اوربا الجنوبي » فتوقع بملوك الفرنجة وتثخن في ممالكهم . وانحازت لهم اوربا باساطيلها الى الجانب الشمالي الشرقي منهُ لا يعدون واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد على فريستهِ . وأمنت طرق المواصلات باقامة الحصون والحارس على ساحل

البحر حتى كانوا يوقدون النار من سبته فيتصل الخبر الى الاسكندرية في ليلة واحدة . هذا وفي الجزيرة الخشب والاخراس وموان منظمة ومراس محكمة وأحواض للسفن وارصفة فكان بمدينة مسيني مرسى ترسو به السفن العظام ووراء ذلك شعب جادّ يعول حكامه ويتجر علماؤه فلا عجب اذا جدّ عامته وصناعه . وكان يصدر من الجزيرة الحديد وما يصنع من القطن والحناء والتين واللوز الناشف والخرنوب وكثير من السمك الذي كانت مصايده بالجزيرة متعددة ومنه نوع كبير يسمى (التن) يتجهز بهذا الى شواطىء الغرب القفيرة وبلاد الروم وما وراءها من أوربا وتحمل منها الخام من المواد الاخرى ويقطع في داخل البلاد تلك الاسواق الكبيرة الكثيرة المنتظمة كما وصفنا

هذه حضارة المسلمين في صقلية . وقد ظلوا دعامة الحضارة والعمارة بها حتى بعد سقوط دولتهم فكان سلطانها ربحار كثير الاستعمال للمسلمين والاتخاذ للفتيان من الجايب وكلهم او اكثرهم كانوا متمسك بدينه . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم حتى كان الناظر في مطبخ ربحار رجل من المسلمين ووزراؤه وحجابه الفتيان وله جلة كثيرة هم أهل دولته وهو يتشبه في ترتيب قوانين الملك ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله واظهار زينته بملوك المسلمين وكان يقرأ ويكتب بالعربية وشعاره عربي كما كان شعار أبيه كذلك قبله . وكان اليه من طابت نفسه بالمقام في صقلية من علمائها فكان حوانيه الاطباء والمنجمون والمهندسون والجغرافيون من العرب « كما سبق » ومن بقي بها من العامة كانوا عماد الملك والقسم الحيّ من الامة فبقيت لهم مساجدهم ومزارعهم واسواقهم المختصة بهم حتى كانت الاسواق في حاضرة صقلية بعد قرن من سقوطها معمودة بهم وهم التجار فيها وحتى كان زيّ النصرانيات في بلرم كزي نساء المسلمين ملتحفات متنقبات حاملات جميع زينة المسلمات من التحلي والتخضب والتعطر وظلت الجزيرة تحفظ الاسماء العربية كقصر جعفر وقصر سعد ومرسى علي . لكن ذلك لا يطول مكثه وفوقه علم للغير خفاق وسلطان منبسط وملك مستوسق والارض تبتلع الضعيف والجن تخطفه والسماء ترميه بشهبها فلا عجب ان تصبح صقلية «سيسليا» كما كانت وان بقي بها من الآثار الخالدة ما حدث عنه الدكتور لويجي ريناللذي ويحدث عنه المنصفون دائماً

امين الخولي المدرس بمدرسة القضاء الشرعي